

من الخوف إلى اليقين □□ دروس إيمانية من هجرة موسى عليه السلام إلى مدين



الأربعاء 19 أغسطس 2026 05:00 م

تتجلى في قصص الأنبياء عليهم السلام أعظم معاني التربية الإيمانية، فهي ليست مجرد أحداث مضت وانقضت، وإنما دروس حية تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتكشف للمؤمن كيف يتعامل مع الخوف والابتلاء والظلم والغربة، وكيف يتحول القلق البشري الطبيعي إلى يقين بالله، ويصبح الدعاء بابًا للنجاة، والتوكل زادًا في أشد الطرق وعورة.

ومن أبلغ هذه المشاهد ما قصه القرآن الكريم عن خروج كليم الله موسى عليه السلام من مصر متوجهًا إلى مدين؛ فقد خرج وحيدًا مطارِدًا، لا يملك من أسباب القوة الظاهرة شيئًا، لكنه كان يحمل في قلبه ما هو أعظم من كل قوة: الإيمان بالله، وحسن الظن به، والافتقار إليه، واليقين بأن النجاة والهداية لا تكونان إلا بأمره سبحانه.

الخوف لا يناقض الإيمان

قال الله تعالى: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [القصص: 21].

يصور القرآن حال موسى عليه السلام في لحظة شديدة من حياته؛ فقد أصبح مطلوبًا من جنود فرعون، وأصبح بقاؤه في المدينة خطرًا على حياته □ وقد سبق أن وصف القرآن حاله بقوله:

(وَذَكَرَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا) [القصص: 15].

ثم قال سبحانه: (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ) [القصص: 18].

ثم انتهى الأمر بخروجه منها: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ) [القصص: 21].

وهنا يعلمنا القرآن أن الخوف الطبيعي لا يقدر في الإيمان، ولا يعني ضعف اليقين أو قلة التوكل □ فموسى عليه السلام نبي كريم، ومع ذلك خاف عندما أحاط به خطر حقيقي يهدد حياته.

إن الإيمان لا يعني أن يفقد الإنسان مشاعره البشرية، بل يعني أن تظل هذه المشاعر منضبطة بنور الوحي، فلا يتحول الخوف إلى يأس، ولا القلق إلى سوء ظن بالله، ولا الخطر إلى استسلام أمام الظالم.

حين يشتد الخطر □□ يكون أول الطريق إلى الله

في اللحظة التي خرج فيها موسى عليه السلام مطارِدًا لم يتعلق قلبه بقوة بشرية، ولم يغتر بقدرة نفسه على النجاة، وإنما رفع دعاء مختصرًا عظيمًا: (رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [القصص: 21].

إنه دعاء المؤمن حين تنقطع أمامه الأسباب، فيعلم أن فوق كل قوة قوة الله، وفوق كل تدبير تدبير الله، وأن الظالم مهما امتلك من الجنود والأعوان وأسباب البطش لا يستطيع أن يتجاوز ما قدره الله.

وكان فرعون وجنوده يملكون من القوة والنفوذ ما يجعل موسى عليه السلام في ظاهر الحسابات البشرية فريسة سهلة، لكن المؤمن لا يقيس الأحداث بالأسباب الظاهرة وحدها، بل يعلم أن الله سبحانه هو الذي بيده ملكوت كل شيء.

وهكذا نجّى الله موسى من القوم الظالمين، فلم تدركه جنود فرعون، ولم تصل إليه يد البطش، وخرج سالماً برعاية الله وحفظه.

إن النجاة من أيدي الظالمين نعمة عظيمة تستوجب شكر الله، خاصة حين تغيب العدالة ويصبح صاحب القوة قادراً على البطش بمن شاء وفي مثل هذه المواطن يزداد تعلق المؤمن بربه، لأنه يعلم أن الله سبحانه هو الملجأ الذي لا يُغلب، والحصن الذي لا يُهدم.

لا تجعل الخوف أكبر من يقينك بالله

لم يكن خوف موسى عليه السلام من فرعون مانعاً له من الثقة بالله، بل اجتمع في قلبه الخوف الطبيعي واليقين الإيماني.

وهذه من أعظم الرسائل التي يحتاجها المؤمن في حياته؛ فقد يخاف الإنسان من المرض، أو الفقر، أو ظلم الناس، أو فقد العمل، أو ضياع الحقوق، أو مستقبل مجهول، وليس عليه حرج في أصل هذا الخوف.

لكن السؤال: ماذا يفعل هذا الخوف بقلبه؟

هل يدفعه إلى اليأس؟ أم يدفعه إلى باب الله؟

موسى عليه السلام جعل الخوف باعثاً على الدعاء، لا باباً للقوط، وجعل الخطر سبباً لمزيد من التوكل، لا سبباً للانهيأر.

ولهذا فإن المؤمن لا يعبد الأسباب ولا يستهين بها؛ يأخذ بما يستطيع منها، ثم يعلق قلبه بالله وحده.

وحيداً في الصحراء لكن الله معه

قال الله تعالى: (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ) [القصص: 22].

خرج موسى عليه السلام من مصر متجهاً نحو مدين، بعيداً عن سلطان فرعون خرج مسرعاً، وحيداً، من غير استعداد ظاهر لرحلة طويلة، فلا صاحب يؤنسه ولا دليل يده ولا راحلة تحمله.

وتذكر كتب التفسير أنه خرج بلا زاد ولا ظهر، حتى قيل إنه لم يكن يجد في طريقه إلا ورق الشجر والبقل.

كانت الصحراء أمامه واسعة، والمستقبل مجهولاً، والعدو خلفه، لكنه لم يكن تائه القلب.

فالذي يدرك أن الله معه لا تضره وحشة الطريق، والذي يهديه الله لا تضله كثرة الدروب.

(عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل).. دعاء لكل طريق

لم يقل موسى عليه السلام: عسى ربي أن يهديني السبيل فقط، وإنما قال: (سَوَاءَ السَّبِيلِ)، أي الطريق السوي المستقيم الذي يبلغه مقصده سالماً.

وهذا الدعاء لا يقتصر معناه على الطريق المادي الذي سار فيه موسى من مصر إلى مدين، بل يحمل معنى أوسع يحتاجه الإنسان في كل حياته.

فنحن بحاجة إلى هداية الله في طرق الدنيا، وباجة إلى هدايته في القرارات والمواقف، وباجة إلى هدايته في اختيار صاحب والعمل والزوج والوجهة، وباجة قبل ذلك كله إلى هدايته في طريق الإيمان الموصل إلى رضوانه وجنته.

فكم من إنسان امتلك الوسائل وضاع منه الطريق، وكم من إنسان قلت وسائله لكن الله هداه سواء السبيل.

الأمل عبادة قلبية في أشد لحظات الابتلاء

في قوله تعالى(عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ) نجد قلباً لا يزال معتلياً بالرجاء رغم شدة المحنة.

فموسى عليه السلام لم يقل: ضاع أمري، ولا قال: كيف سأنجو وأنا وحيد؟ وإنما توجه إلى الله راجياً هدايته.

وهكذا يصنع الإيمان بصاحبه؛ لا يمنعه من إدراك صعوبة الواقع، لكنه يمنعه من الاستسلام له.

وقد ذكر أهل التفسير أن «عسى» إذا جاءت من الله تعالى فهي للتحقيق والوقوع، كما نقل عن الطبري قوله: «عسى من الله حق»، وذكر القرطبي أن عسى من الله واجبة في مواضع القرآن إلا ما استثناه العلماء، ومنه قوله سبحانه: (عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُرِيدَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ) [التحريم: 5].

أما قول موسى عليه السلام (عَبَسَ رَبِّي) فهو رجاء العبد في فضل ربه، وأدب المؤمن الذي يعلم أن الهداية نعمة لا يستغني عنها لحظة واحدة.

مدين: بداية الفرج بعد شدة الخوف

قاد الله موسى عليه السلام إلى مدين، الأرض التي خرجت عن سلطان فرعون، وهناك بدأت صفحة جديدة من حياته.

وحين قص موسى خبره على الرجل الصالح جاءه التطمين: (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [القصص: 25].

يا لها من مسافة إيمانية عظيمة بين قول موسى وهو خارج من مصر: (رَبِّ نَجِّني مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

وبين سماعه بعد الوصول إلى مدين: (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

دعا بالنجاة، فأراه الله أثر الإجابة.

خرج خائفًا، فوصل آمنًا.

خرج وحيدًا، فوجد مأوى وأهلًا.

خرج لا يدري ما ينتظره، فقادته عناية الله إلى مرحلة ستكون إعدادًا له لحمل رسالة عظيمة في المستقبل.

بين الدعاء والإجابة رحلة من اليقين

إن قصة موسى عليه السلام تعلمنا أن إجابة الدعاء قد تبدأ بخطوات لا نفهم حكمتها في أول الطريق.

فقد تكون الإجابة في الخروج من مكان اعتدناه، أو في فقد شيء ظنناه ضرورة، أو في رحلة شاقة لم نخترها لأنفسنا.

لكن المؤمن يعلم أن الله قد يخرج به من موضع الخطر ليهيئه في مكان آخر لقدر أعظم.

موسى الذي خرج فارقًا من فرعون سيعود بعد سنوات رسولاً إلى فرعون نفسه، يحمل إليه رسالة ربه.

فسبحان من يحول الهارب المطارد إلى رسول يقف أمام أعتى طاغية، وسبحان من يجعل طريق الخوف أول طريق التمكين.

الهداية أعظم ما يطلبه المؤمن

إن دعاء موسى: (عَبَسَ رَبِّي أَلَّنْ يَهْدِيَنِي سُبُلَ السَّيْلِ) يذكرنا بأن حاجتنا إلى الهداية لا تنتهي.

نحتاج إلى هداية في الطريق المادي، وهداية في الطريق المعنوي، وهداية في الفتن، وهداية عند الاختيار، وهداية عند الخوف، وهداية حين تكثر الأصوات وتتداخل الآراء.

ولهذا كان أعظم دعاء نكرهه في كل ركعة من صلاتنا: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة: 6].

فالإنسان مهما بلغ من العلم والخبرة لا يستغني عن هداية الله.

من دروس الهجرة: خذ بالأسباب ولا تتعلق بها

خرج موسى عليه السلام من المدينة ولم ينتظر حتى تصل إليه جنود فرعون، فكان خروجه أخذًا بسبب النجاة.

وفي الوقت نفسه قال: (رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، وهذه هي حقيقة التوكل: عمل بالجوارح واعتماد بالقلب على الله.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز" رواه مسلم.

فالمؤمن لا يترك الأسباب باسم التوكل، كما أنه لا يجعل الأسباب إلهاً آخر يعتمد عليه من دون الله بل يتحرك، ويخطط، ويسعى، ثم يعلم أن النتائج جميعًا بيد الله.

ثق أن قوة الظالم محدودة

قد يبدو الظالم في لحظة من اللحظات قويًا لا يُقهر، تحيط به الجنود والأجهزة والأموال والنفوذ، لكن قصة موسى عليه السلام تعلمنا أن كل هذه القوة تقف عند حد إرادة الله.

فرعون الذي كان يبحث عن موسى ليقتله لم يستطع أن يمنع موسى من الخروج إلى مدين.

ثم سيأتي اليوم الذي يعود فيه موسى إلى مصر بأمر الله، ويواجه فرعون برسالة التوحيد.

وقد قال الله تعالى: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [يوسف: 21].

فلا ينبغي للمؤمن أن يستهين بقوة الخصم، لكنه في الوقت نفسه لا يجوز أن يجعلها أكبر في قلبه من قدرة الله سبحانه.

إذا ضاقت بك الطرق فقل: رب اهدني سواء السبيل

كل إنسان تمر عليه لحظات يشعر فيها أنه يقف أمام طريق مجهول، ولا يعرف أين تكون نجاته أو مصلحته.

وهنا يأتي درس موسى عليه السلام: لا تجعل الحيرة تمنعك من الدعاء.

قل من قلبك: (عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ).

واسأل الله أن يذكلك على القرار الصحيح، وأن يصرف عنك طريق الضرر، وأن يفتح لك من حيث لا تحتسب.

فمن استعان بالله أعانه، ومن توكل عليه كفاه، قال سبحانه: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) [الطلاق: 3].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خمائلاً وتروح بطائراً" رواه الترمذي.

فالطير لم تبق في أعشاشها تنتظر الرزق، وإنما غدت وسعت، لكنها خرجت متوكلة على الله.

خاتمة قد يبدأ الفرع بخطوة في طريق مجهول

خرج موسى عليه السلام من مصر خائفاً يترقب، ولم يكن يعلم بالتفصيل ما الذي ينتظره وراء الصحراء، لكنه كان يعلم من هو ربه.

قال عند الخطر: (رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

وقال في الطريق: (عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ).

ثم جاءه في مدين قول الله الذي ساقه إليه على لسان من آواه: (لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

وهكذا تكون رحلة المؤمن: دعاء عند الخوف، وتوكل أثناء الطريق، ورجاء عند المجهول، ثم يرى من لطف الله ما يجعله يدرك أن اليد التي قادتته في ساعة الشدة لم تتركه لحظة واحدة.

فإذا ضاقت بك الدنيا، وكثرت حولك المخاوف، وغابت عنك معالم الطريق، فلا تجعل أول ما يملأ قلبك هو قوة البشر، بل تذكر قوة رب البشر، وقل بلسان موسى عليه السلام: (رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

ثم امض في طريقك داعياً: (عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ).

المصادر والمراجع:

1. الخالدي، صلاح القصص القرآني؛ عرض وقائع وتحليل أحداث، دمشق، دار القلم، ط4، 2016م.
2. نوفل، أحمد تفسير سورة القصص، عمان، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط1، 2015م.
3. سيد قطب في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط32، 1423هـ / 2003م.
4. الودعان، إبراهيم بن فهد وقفة تأمل مع موسى عليه السلام في مدين (أكثر من 200 فائدة)، السعودية، مراجعة: عبد الرحمن بن فهد الودعان، 1438هـ / 2017م.
5. العليمي مجير الدين الحنبلي فتح الرحمن في تفسير القرآن، دار النوادر للنشر والتوزيع، 2012م.
6. الورثان، نورة بنت عبدالله الجانب الخلقي في قصة موسى عليه السلام والمرأتين، السعودية، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، مج17/ع33، 1426هـ / 2005م 08:35 PM